الفصل الثانى

ابن هشام وما فعله بسيرة ابن إسحاق

فى مقالنا الماضى رأيت كيف أن أصولنا القديمة تروى ـ بحسن نية ـ أخباراً تسىء إلينا ، فقد رأيت كيف أن الطبرى يصور زواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش على غير صورته الحقيقية ، وأن القارئ لنص حكاية زواجه من زينب بنت جحش فى تفسيره للقرآن يحسب أن هناك ميلاً جسديًا ، وليس هناك أى ميل جسدى فى هذه الحكاية كلها ، ولكن الطبرى كان رجلاً ساذجاً ، وكان لا يدقق فيما يروى ولا فى الصورة التى يروى بها ، فكانت النتيجة أننا اليوم نجد المستشرقين يأخذون أخباره ويستعملونها فى حربهم ضد الإسلام ورسوله ، كما رأينا فى حكاية ما يسمى بالآيات الشيطانية .

ولا بد ـ إذن ـ أن نعيد النظر فى أصول تاريخنا الإسلامى ، وننبه الأذهان إلى ما يضرنا فيها ، ولست أقصد بذلك أن نشطب منها أخباراً ، فأنا لا أجيز المساس بالأصول ، بل أقصد أن ننبه إلى الخطأ فقط ، أما الأصول فلا يمسها أحد ، وسأضرب هنا مثالاً من أصول السيرة النبوية الشريفة .

مراجعنا عن السيرة كثيرة جدّا ، ولكن أكبرها وأهمها خمسة :

أ ـ السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق .

ب ـ مغازى رسول الله لمحمد بن عمر الواقدى .

جـ ـ سيرة الرسول لابن سعد ، وهى الجزءان الأولان من طبقاته الكبرى .

د ـ سيرة الرسول لموسى بن عقبة .

هـ ـ سيرة الرسول لعبد الله بن محمد الأنصارى ، وقد ضاع هذا الكتاب ، ولكن ابن سعد احتفظ لنا بفقرات كثيرة منه .

ونكتفى هنا ـ على سبيل الاختصار ـ بالكلام عن ابن إسحاق .

ومن المعروف أن هذا الرجل هو من أعاظم مؤرخى السيرة ، وكتابه ـ حتى بعد تدخل ابن هشام فيه وإفساد نصه ـ ما زال من مراجعنا الأولى والرئيسية عن حياة الرسول ﷺ ، ولكن اسمع ما يقوله عنه أبو الفرج محمد بن إسحاق بن النديم فى كتابه الأشهر : « الفهرست » (ص ١٣٦ من طبعة دار المعرفة فى بيروت) : صاحب السيرة ، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار مطعون عليه غير مرضى الطريقة . يحكى أن أمير المدينة رقى إليه أن محمداً يغازل النساء ، فأمر بإحضاره ، وكانت له شعرة حسنة فوق رأسه (؟) فضربه أسواطاً ، ونهاه عن الجلوس فى مؤخرة المسجد ، وكان حسن الوجه ، يروى عن

فاطمة بنت المنذر زوجة هشام بن عروة (بن الزبير) فبلغ ذلك هشاماً فأنكره ، وقال : ومتى دخل إليها ؟ ومتى سمع منها ؟ ويقال : كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها إليه ، ويسأل أن يدخلها فى كتابه فى السيرة فيفعل ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر ، وأخطأ فى النسب الذى أورده فى كتابه ، وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم فى كتبه أهل العلم الأول ، وأصحاب الحديث يضعفونه ويتهمونه . وتوفى سنة خمسين ومائة وله من الكتب كتاب الخلفاء ، رواه عنه الأموى ، وكتاب السيرة ، والمبتدأ والمغازى ، رواه عنه ابن سعد والنفيلى ، واسم النفيلى محمد بن عبد الله ابن نمير النفيلى ، توفى سنة أربع وثلاثين ومائتين بحران ، ويكنى أبا عبد الرحمن .

فأنت ترى هنا أن محمد بن إسحاق بن النديم لم يقل كلمة خير واحدة فى ابن إسحاق ، وهذا ظلم بَيِّنٌ ، فما كان الرجل بهذا السوء ، حقًا كان له خصومه ، ولكنه من أوثق مؤرخينا وأولاهم بالتقدير . والحقيقة هى أن هؤلاء الماضين كان بعضهم يقع فى بعض لأسباب شخصية وقليلة الأهمية ... وإليك طرفاً مما قاله فيه محققو سيرة ابن هشام المأخوذة عن ابن إسحاق ـ ثلاثة من أوثق علماء مصر هم : مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى (سيرة ابن هشام جـ١ ص م وما بعدها) :

وقد ترك ابن إسحاق المدينة ورحل إلى غيرها متنقلاً فى

أكثر من بلد . وفى ظننا أن رحلته إلى الإسكندرية التى كانت سنة ١١٥هـ . هى أولى رحلاته التى بدأ بها . وفى الإسكندرية حدث عن جماعة من أهل مصر منهم عبيد الله بن المغيرة ،ويزيد ابن حبيب ، وثمامة بن شفى ، وعبيد الله بن أبى جعفر ، والقاسم بن قزمان ، والسكن بن أبى كريمة . وانفرد ابن إسحاق برواية أحاديث عنهم لم يروها غيره . ثم كانت رحلته إلى الكوفة والجزيرة والرى والحيرة وبغداد ، وفى بغداد ـ على الأرجح ـ ألقى عصا التسيار ، وفيها لقى المنصور وصنف لابنه المهدى كتاب السيرة ، ورواةُ ابن إسحاق من هذه البلدان أكثر ممن رووا عنه من أهل المدينة ، بل المعروف أنه لم يرو له من أهل المدينة غير إبراهيم بن سعد ، وعاش فى بغداد ما عاش حتى وافته منيته بها فدفن فى مقبرة الخيزران .

إذن فالمسألة كلها هى أن هذا الرجل كان جميل الصورة عندما كان شابّا ، وكان له ولع بالنساء ، فأنكر عليه أهل المدينة ذلك ، بل أدَّبَه واليها ، وهذا لا يمنع أن يكون ـ فيما بعد ـ عالماً عظيم القدر . وقد وقعت بينه وبين نفر من كبار أهل المدينة خلافات ، فأساءوا الحكم عليه لأسباب شخصية ، ومن هؤلاء مالك بن أنس الذى وقع فى خلاف مع حاكم المدينة بسبب امرأة كان مالك يملكها فوضع حاكم المدينة يده عليها ؛ لأنه تبين أنها ليست ملكه ، ووقف محمد بن إسحاق إلى جوار عامل المدينة وحمل على مالك بن أنس ، فكرهه مالك وحمل عليه ، وكذلك

كرهه هشام بن عروة بن الزبير غيرة منه على امرأته ، والنتيجة أن هذين العالمين يكادان يخرجانه من حظيرة المحدثين أهل الصدق والثقة ، ولا يدخران وسعاً فى اتهامه بالكذب والدجل ، وذلك إلى اتهامات أخرى رمى بها ابن إسحاق كالتدليس ، والقول بالقدر ، والتشيع ، والنقل عن غير الثقات ، وصنع الشعر ووضعه فى كتابه ، وأخطاء فى الأنساب ، كما أنك تجد غير واحد من أئمة الأعلام كابن شهاب الزهرى وشعبة والثورى وزياد البكائى - يوثقونه ولا يتهمونه بشىء من هذا .

والحقيقة أن حملة الحاملين على ابن إسحاق لم تكن مبرأة عن الغاية ، ولم تكن من الحق فى شىء ، فإنا نعلم أن ابن إسحاق كان يطعن فى نسب مالك بن أنس وفى علمه ، ويقول : ائتونى ببعض كتبه حتى أبين عيوبه فأنا بيطار كتبه ، فانبرى له مالك ، وفتش هو الآخر عن عيوبه ، وسماه دجالاً ، وكانت بينهما هذه الحرب الكلامية (مقدمة سيرة ابن هشام ص ت) .

وكذلك كان هشام بن عروة بن الزبير . يقول ابن إسحاق : إنه كان يروى أخباراً عن زوجة هشام ، وكان هشام ينكر أن يكون ابن إسحاق قد رأى امرأته ، وكان هشام ضنيناً على امرأته أن يراها ابن إسحاق ، أو أن ابن إسحاق حمل عنها صغيرا ، ومن الممكن أن يكون ابن إسحاق قد روى عن امرأة هشام من وراء حجاب ، ثم إن هشاماً ما كان له أن يغار من ابن إسحاق ؛ فقد كانت سنها حين كان من الممكن أن يروى عنها

حوالى الخمسين سنة ، فهى أكبر منه بسبعة وثلاثين عاماً ، ثم إنه لم يكن غريباً فى ذلك العصر أن يروى رجل عن امرأة . وقد أثنى على ابن إسحق الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ، وابن سيد الناس فى كتابه « عيون الأثر » وهو سيرة نبوية موثوق فيها ، وهى مروية عن ابن إسحاق عن غير طريق زياد البكائى . وهو الذى أخذ ابن هشام بروايته عندما أعاد كتابة سيرة ابن إسحاق . وابن سيد الناس بالذات يثنى على ابن إسحاق ثناء عظيماً ، ويفند المطاعن التى رمى بها ، وينفى عنه التدليس .

وقد أتت هذه المطاعن على أصحاب الأصول ومولفاتهم من تقليد جرى عليه الماضون يسمى الجرح والتعديل ، ويراد بالجرح بيان العيوب ، أما التعديل فيراد به المديح ، وكانت فيهما قسوة فى الجرح والنقد ، وما من عالم مسلم إلا قرأنا فيه قدحاً مقذعاً من خصومه وأعدائه ، فهم لم يكونوا نقاداً بالمعنى الصحيح ، وإنما كان فيهم عنف وقسوة ، وعندما تقرأ ما يقوله ابن حجر العسقلانى مثلاً فى غيره من العلماء تدهش لتلك القسوة وهذا العنف ، ونحن اليوم ننقد الكتب وأصحابها ، ولكن فى أدب واعتدال ، أما اتهام الناس بالكذب والتدليس فأمر لا يليق ولا يصح ، وخير لنا أن نقرأ الناس ونحكم عليهم بما نرى، أما الجرح والتعديل بالصورة التقليدية فى تاريخنا فلم يأتنا منهما إلا الضرر .

والذى نراه نحن فى ابن إسحاق أنه كان رجلاً فاضلاً

ومؤرخاً موهوباً ، وهذا لا يمنع من أن يكون قد وقع فى أخطاء ، وكل الناس يقعون فى أخطاء ، وكل خطأ يمكن إصلاحه ، ويا ليتنا وجدنا نص ابن إسحاق كما كتبه هو . إذن لكانت لدينا سيرة نبوية ممتازة تشبه ما لدينا من مغازى الواقدى .

أما الأمر الجسيم حقًا فهو ما فعله ابن هشام فى سيرة ابن إسحاق ، فقد كان أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى فقيهاً مصريًا من أوائل القرن الثالث الهجرى ، ويحدثنا الرواة أن ابن هشام كان من أصل يمنى أو كان من غافر أو من سدوس ، وقد ولد بالبصرة ثم هاجر إلى مصر ، ولا نعلم متى ولد الرجل بالضبط ، فقد نشأ من أصل خامل ، ولكنه توفى فى مصر سنة ٢١٨ أو ٢١٣ هـ . وقد أصبح ابن هشام فى مصر عالماً عظيماً ، ويقال : إنه لقى الشافعى وتناشدا الأشعار . وقد ظهر أمره فى اللغة والأدب والفقه والتاريخ ، وله مؤلفات أخرى كثيرة غير سيرة النبى ﷺ ، ولكن سيرته هى التى جعلت له اسماً وشهرة ، ويبدو أن الكثيرين لم يكونوا مستريحين لسيرة ابن إسحاق ، فغلب الاعتماد عند المؤرخين على سيرة ابن هشام حتى خمل أمر سيرة ابن إسحاق ، وقلت نسخها ، وهذا هو السبب فى أن سيرة ابن إسحاق اختفت تقريباً ، ولم يبق إلا سيرة ابن هشام ، ومن سوء الحظ أنه عندما تناول سيرة ابن إسحاق وأعاد كتابتها تصرف فيها على هواه ، فشطب ، وأضاف ، واختصر ، وأتانا بسيرة أخرى ، وهذا أمر يؤسف له

حقّا ، وفيما يلى سآتيك بكلامه نفسه عما فعل ؛ لتقف عليه بنفسك : «وأنا ـ إن شاء الله ـ مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل ابن إبراهيم ، ومن ولد رسول الله ﷺ من ولده ، وأولادهم لأصلابهم ، الأول فالأول من إسماعيل إلى رسول الله ﷺ وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة للاختصار ، وتارك إلى حديث سيرة رسول الله ﷺ ، بعض ما يذكره ابن إسحاق فى هذا الكتاب مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر ولا نزل فيه من القرآن شىء ، وليس سبباً لشىء من هذا الكتاب ، ولا تفسيراً له ، ولا شاهداً عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، أو أشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشفع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره . وبعض لم يقر لنا البكائى بروايته ، ومستقصٍ ـ إن شاء الله ـ فى مقالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به » . ومعنى هذا أن ابن هشام تصرف فى سيرة ابن إسحاق على هواه ، فقد أخذ القاعدة والأساس ، ثم مضى يذكر من الأخبار ما يرضى عنه ، ويستبعد ما لا يرضى عنه ، وإذن فنحن أمام سيرة أخرى من صنع ابن هشام .

وهذا هو الذى يجعلنا نشك فى معظم ما يرويه ابن هشام ، وإن كنا لا نستطيع رفضه كله ، ولقد كان ابن إسحاق عالماً بالسيرة حقّا ، وكنا نتمنى لو وصلتنا سيرته كما كتبها كما أخذها من الأصول ، أما ابن هشام فقد روى بحسب مزاجه وما

رأى ، وهذه نقطة ضعف كبيرة ، وهى التى تجعلنا نرى أن السيرة التى يقدمها لنا ابن سعد فى كتاب الطبقات نقلاً عن الواقدى أولى بالثقة ؛ لأن الواقدى كان مؤرخاً صادقاً دقيقاً ، وقد وصل إلينا كتابه الأشهر « مغازى رسول الله ﷺ » كاملاً وحققه المستشرق الأمريكى مارسون جونز تحقيقاً جيداً ، ونحن نجد فى كتاب المغازى من الحقائق عن حياة رسول الله ﷺ وأعماله ما لا نجده عند غيره ، ومن ثم فإننا نرى أن كل المحدثين الذين اعتمدوا على ابن هشام وحده دون الرجوع إلى الطبرى وابن سعد والواقدى لا يروون لنا سيرة نبوية جديرة بالاحترام الذى ينبغى لسيرة رسول الله ﷺ ، وهذا يصدق على كل ما كتب فى السيرة بأقلام رجال من أمثال طه حسين والعقاد ومن جاء بعدهما ؛ فهى فى الحقيقة أدب وليست تاريخاً . والحقيقة هى أن سيرة ابن هشام ـ كما صنعها من سيرة ابن إسحاق ـ تحتاج ممن يستعملها إلى التأنى والتفكير ؛ لأننا لا نطمئن إلى ما يرويه علينا ، وسيرة رسول الله ﷺ أعز علينا من أن نعتمد فى أصولها على ما كتبه رجل كان يتصرف على هواه.

ولكى اصور لك بعد سيرة ابن هشام عن الحقيقة أذكر هنا ما يرويه عن فتح رسول الله ﷺ مكة ، وكيف أنه يجعل العباس ابن عبد المطلب من كبار شخصيات هذا الفتح ، ويزعم أن العباس كان قد أسلم قبل الفتح بزمن طويل ، وأنه أقام فى مكة ؛ لكى يبلغ رسول الله ﷺ ما كانت تفعله قريش ، وكيف أنه

خرج يستقبل جيش الرسول وتوسط لأبى سفيان ، ولولا توسطه لقتله المسلمون ، وهذا كله غير صحيح ، وهو إضافة مصطنعة من الإدارة العباسية ، ومن المعروف أن ابن إسحاق وابن هشام كليهما كتبا فى ظلها ، وقد تولت الإدارة العباسية صياغة سيرة الرسول ﷺ على نحو يجعل العباس يبدو كأنه كان من كبار المؤمنين ؛ لأن فى ذلك تأييداً لبنى العباس وادعائهم بأنهم أحق بالخلافة من على بن أبى طالب وأولاده. وسآتيك هنا بما يقوله ابن هشام فى هذه المناسبة وأناقشه .

قال ابن هشام (السيرة جـ٤ ص ٤٢) : كان العباس بن عبد المطلب قد لقى رسول الله ﷺ ببعض الطريق . قال ابن هشام : لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله ، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته ورسول الله ﷺ عنه راض فيما ذكر ابن شهاب الزهرى . قال ابن إسحاق : وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ أيضاً بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة فيهما فقالت : يا رسول الله ، ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، قال : لا حاجة لى بهما : أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال فىَّ بمكة ما قال. قال : فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبى سفيان بنىٌّ له فقال : والله ليأذنن لى أو لآخذن بيدى بنى هذا ولنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ

رق إليهما ، ثم أذن لهما فدخلا عليه فاسلما ، وأنشد أبوسفيان ابن الحارث قوله فى إسلامه .... فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران قال العباس بن عبد المطلب : واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه هلاك قريش إلى آخر الدهر . قال : فجلست على بغلة رسول الله ﷺ فخرجت عليها حتى جئت الأراك ، فقلت : لعلى أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه ؛ ليستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة ، فقال : والله إنى لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرا .

قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها (أى أحرقتها وقد تكون حمستها) قال : يقول أبوسفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . قال . فعرفت صوته فقلت : يا أبا حنظلة ! فعرف صوتى وقال : أبو الفضل ؟ قال قلت : نعم . قال : مالك ؟ فداك أبى وأمى ! قال : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله ﷺ فى الناس واصباح قريش والله ! قال : ما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ قال : قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك ، قال : فركب خلفى ورجع صاحباه . قال : فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا

بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال : من هذا ؟ وقام إلىّ ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ؟ الحمد لله الذى أمكننى منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطىء قال : فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر قال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه فدعنى فلأضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول إنى قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه وقلت : والله لا يناجيه الليلة دونى رجل ، فلما أكثر عمر فى شأنه قال : قلت : مهلاً يا عمر ! فوالله أن لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف .

★★★